

الدلالة الصوتية بين عموم اللفظ وتعدد المعنى

د. أحمد مطهري

جامعة وهران 1

نشأة الدرس الصوتي:

تتألف اللغة من مجموعة الأصوات التي تعبر عن الأشياء الحسية، والأفكار المجردة، وقد كان للعلماء والباحثين منذ القدم، في دراساتهم الصوتية أهداف تعليمية تتمثل في القصد إلى تحسين الحرف بالنطق والأداء الجيد. وإذا ما تصفحنا المصادر التاريخية التي تتحدث عن الدراسات الصوتية عند الهنود، نجدها تعكس وعيا علميا عميقا، يتجلى في دقة الوصف والتصنيف، وذلك راجع إلى اهتمامهم بالنطق الصحيح، أي الأداء الفعلي والمثالي للكلام، وهو العامل المباشر في نشأة علم وصفي للأصوات، إذ وضع الهنود قواعد ومعايير صوتية خاصة لقراءة كتابهم الفيدا¹.

كما تشير الدراسات التاريخية والأدبية إلى أن فلاسفة اليونان اهتموا بالدرس الصوتي، ونظروا إليه في جانبه الوصفي، ذلك أن "أصول الكلمة له عمق تاريخي منذ عهد الإغريق الذين بحثوا في علاقة الكلمة بمدلولها اللغوي، نعي بذلك علم الأصوات إلى جانب المستويات اللغوية الأخرى، بالإضافة إلى النبر والتنغيم"²، بحيث عالجوا من خلال هذه الفكرة العلاقة بين الصوت والدلالة، "فقد أسهبوا في دراستها، وساءلوا أنفسهم عن طبيعة العلاقة بين أصوات الكلمة ومدلولها، وعما إذا كانت هذه العلاقة تتضمن ناحية رمزية توثق بين تلك الأصوات وما تدل عليه الكلمات من أمور ندركها بالحواس والعقول، أو أن الأمر لا يعدو مجرد مصادفة"³.

وللعرب أيضا نصيبهم من هذه الدراسات خاصة المتعلقة بأداء القرآن الكريم، "فقد بدأ البحث عن طبيعة العلاقة بين جرس الكلمة ومعناها الذي يتسق معها عند العرب في وقت مبكر، منذ أن واجهوا مشكل الآيات القرآنية وإعجازها، واستخراج الأحكام الشرعية

واللغوية منها، سواء عند علماء الفقه والأصوليين أو عند اللغويين، إدراكا من هؤلاء لأهمية مسألة الصوت والدلالة، وقيمتها في خدمة القرآن الكريم، والشريعة الإسلامية، وحفظ نقاء العربية وصفائها، وحل كثير من إشكالاتها الصوتية والدلالية، وبيان القيم التعبيرية للأصوات، وهي منتظمة داخل البنيات أو التراكيب⁴. وما نظام الكتابة العربية إلا تعبير عن الحقائق الصوتية التي بنيت عليها، بحيث أن هذا النظام يتماشى مع منهج التفكير الصوتي الذي يهدف إلى تأسيس نظم كتابية للغات، خالية من الاضطراب والتعقيد.

وقد اهتم أبو الأسود الدؤلي منذ القدم بهذه الفكرة، بحيث ربط الخط والمذلول الصوتي، وكان ذلك عندما ضبط كلمات القرآن الكريم بالنقط من خلال تتبع حركة الشفتين عندما قال لكتابه "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضمنت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت فاجعل النقطة نقطتين"⁵.

وبعد هذا العمل الجبار الذي قام به أبو الأسود الدؤلي سارت الدراسات الصوتية على نسق متجه نحو الانسجام الصوتي في اللفظة الواحدة وبيان المعايير المعتمدة في فصاحتها، ثم بعد ذلك دراسة القيمة التعبيرية للصوت، ومدى اتفاق دقة الدلالة مع جرس الكلمة المقروءة. و"يعد الخليل منبع الاتجاه الذي تولى دراسة القيمة التعبيرية للأصوات، ومدى اتفاق دقة المعنى مع جرس الحرف المختار، فقد شغلته الألفاظ المعبرة عن أصوات المسموعات، ورأى فيها أصواتا محاكية للطبيعة، وحاول إثبات نوع من الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ودلالاتها من جهة، ثم بين أنغام الألفاظ ومعانيها الكلية من جهة أخرى، وفي ذلك النظر تبدو الأصوات والصيغ مترابطة مع الدلالة، وكأن هناك نتيجة ضرورية للإيحاء مع تتابع الحروف أو بناء الكلمات"⁶.

وقد سار في هذا النهج أيضا ابن جني في خلال حديثه عن نظرية المحاكاة التي تقوم على محاكاة أصوات الطبيعة في اصطلاح اللفظ، بحيث نجد شرحا مستفيضا من خلال ما أفرده في كتابه الخصائص في باب "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني"، وباب "إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، حيث نجده ومن خلال ما أورده من أمثلة يشرح العلاقة بين أصوات الحروف

ودلالاتها على معانيها، إما بالقوة أو الضعف استنادا إلى ما يقابلها من أصوات في الطبيعة، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى.

أهمية الصوت في الدراسات اللغوية:

لقد أدرك اللغويون أهمية الصوت؛ إذ هو أحد ضروريات الحياة؛ لأن الإنسان في تواصله مع الآخرين يستخدم الأصوات اللغوية الدالة في جميع أغراضه، والتعابير الدالة على أحاسيسه ومشاعره، وقضاء لحاجياته، ووفاء بمتطلباته. ونقصد بالصوت اللغوي، اللغة في حد ذاتها، فقد ربطها ابن جني بالصوت في قوله: "أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"⁷.

والمراد بالدلالة الصوتية تلك الدلالة المستمدة من طبيعة بعض الأصوات وهي تندرج ضمن اهتمامات علم الأصوات، ذلك العلم الذي يدرس الأصوات في حد ذاتها، مخارجها وصفاتها ووظائفها في الاستعمال اللغوي، فلو حللنا كلام أي إنسان لوجدناه يتركب من سلسلة من الأصوات والنغمات، هذه السلسلة تتكون من وحدات حددها علماء اللغة على أنها كلمات مؤلفة من مجموعة من الحروف، هذه الحروف بدورها متكونة من مجموعة من الأصوات، بحيث أن كل حرف يتكون من صامت وهو جسم الحرف، وصائت وهو حركة الحرف أو روحه.

كما قدّم لنا الخليل أول تصنيف للأصوات حسب مكان نطقها، فظهر هناك نوعان من الأصوات وهما الصامتة والصائتة، بحيث يقول: "في العربية تسعة وعشرون حرفا، منها خمسة وعشرون حرفا صحيحا لها أحياز ومخارج، وأربعة هوائية: الواو، الياء، الألف اللينة، الهمزة، فأما الهمزة فسميت حرفا هوائيا لأنها تخرج من الجوف"⁸، وأما سيبويه فقد صنفها حسب ما يعرف بوضع الأوتار الصوتية مما نتج عنها الجهر والهمس، فيقول في ذلك: "فأما المجهورة، الهمزة والألف... واللام... وأما المهموسة فالحاء، والخاء... ومن الحروف الشديد وهو الذي يمنع الصوت أن يجري فيه وهو الهمزة، والقاف، والكاف... ومنها الرخوة وهي: الهاء، والخاء... وأما العين فبين الرخوة والشديدة... ومنها المنحرف وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت، ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف

الشديدة وهو اللام.. ومنها المكرر وهو حرف شديد يجري فيه الصوت لتكريره وانحرافه إلى اللام، فتجافى للصوت كالرخوة، ولو لم يكرر لم يجر الصوت فيه وهو الراء، ومنها اللينة وهي الواو والياء لأن مخرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما... ومنها الهاوي وهو حرف لين اتسع لهواء الصوت... ومنها المطبقة والمنفتحة⁹.

ويعتبر ابن جني من الأوائل الذين تعرضوا إلى دراسة جهاز النطق، فقد شبهه بالناي، وبوتر العود ليعطينا صورة واضحة عن العملية الطبيعية التي يتم من خلالها إنتاج الكلام وتصنيف الأصوات حسب مخرجها وفي هذا يقول: "و لأجل ما ذكرناه من اختلاف الأجراس في حروف المعجم باختلاف مقاطعها التي هي أسباب تباين أصداؤها، ماشبه بعضهم الحلق والقم بالناي"¹⁰.

ويرى بعض الباحثين أن الدلالة الصوتية قد تستفاد من فونيمات حروف الكلمة نفسها؛ أي أنّ هناك علاقة طبيعية بين الدال ومدلوله، مثل وضع صوت مكان آخر؛ أي إبدال فونيم مكان فونيم آخر، مما يؤدي إلى تغير دلالة الكلمة وخروجها إلى معنى آخر، و"يعرف هذا الإحلال الصوتي في علم اللغة الحديث بالتوزيع التقابلي حيث يحل فونيم محل آخر في كلمة ما، فتنشأ كلمة ذات معنى مختلف"¹¹.

وقد أدرك بعض الباحثين مدى العلاقة الصوتية التي تربط حروف الكلمة الواحدة ببعضها البعض، بالإضافة إلى دور الفونيم هناك النبر والتنغيم، فأما النبر فهو الضغط على مقطع معين من الكلمة بقصد إيضاح هذا المقطع وإظهاره أو على كلمة معينة من الجملة قصد توكيدها، وتسمى بالنبرة التقابلية، كما أن هناك النبر الدلالي أو نبر السياق الذي يهتم بدراسة تغير موقع النبر من كلمة إلى أخرى في جملة كلامية ليظهر اهتمام المتكلم بمعنى معين¹²، و"القصد من تنبير متكلم لتركيب معين مآله أمران: 1- تحديد دلالة الخطاب بصرف النظر عن الوظائف التي تحدثها وحدات سانيكية أو لكسيكية 2- زيادة القيمة للكلمة من خلال المقطع المنبور الذي قد يسود التركيب أو الجملة بكاملها"¹³.

وأما التنغيم فهو "إعطاء القول الأنغام المناسبة والفواصل المناسبة وهذا المصطلح يدل على ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام ويسمى أيضا موسيقى الكلام"¹⁴، ويعتبر التنغيم

بمثابة التنوعات الموسيقية أو التلوينات الصوتية التي تصاحب الكلام وتفرق بين معانيه، كالاستفهام والتعجب والتقرير وغيرها من الأساليب الكلامية، فالنظام الصوتي للغة هو "مجموعة من الوحدات الصوتية والتركيبية تعرف بالفونيمات، ومجموعة أخرى فوق التركيبية مثل النبر والتنغيم، وشبكة من العلاقات التي تربط هذه الوحدات، فنتج الكلمات ذات المعاني في اللغة"¹⁵، مما يبين أن للدرس الصوتي أهمية كبرى وفق آليات ومناهج معينة تهدف إلى استنباط معاني الكلمات عبر السياقات المختلفة.

دلالة الأصوات على قوة وضعف المعنى:

لقد خصص العرب في كلامهم درجات الأصوات وصنفوها إلى الأصوات القوية والأصوات الضعيفة، بحيث "جعلوا الحرف الأضعف والأخف والأسهل والأهمس فيها والألين لما هو أدنى وأقل وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلوا الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حساً"¹⁶. وبظهور العلوم وبروز الدراسات المتخصصة في الأصوات من طرف علماء اللغة قديماً وحديثاً، استنبطوا صفات ومميزات للحروف، فوضع لكل حرف منها صفة مثل الجهر والهمس، ومخرج مثل حلقي وشفوي، مما يوحي بوجود إيجاءات من حيث الشكل والدلالة، وهذا ما نجده عند ابن جني حيث ارتكز تحديده للمعنى الجوهري لما أورده من أمثلة على تقارب مخارج الحروف باعتبار أن الواسطة التي كانت بين أصوات اللغة وأصوات الطبيعة هو الجهاز النطقي الذي رزقنا به الله عز وجل، وقام ابن جني بإحصاء عدد من الحروف بحيث إذا قمت بالجمع بينها أعطتك دلالة معينة، وهو ما أشار إليه بقوله: "إذا ما زوجتھن الفاء على التقدير والتأخير، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما"¹⁷، مثال ذلك الدالف وهو الشيخ الضعيف، والدنف وهو المريض، والفرد لأن فيه ضعفاً بخلاف الجمع.

ثم يعود ابن جني إلى تقسيمه للمعنى الجوهري من حيث قوته وضعفه، فيقسم أمثله على نحو من ذلك استناداً إلى الحروف وصفاتها، وقد ذكر ذلك في "باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، بحيث يضرب لنا مثلاً بصيغتي خضم وقضم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقضاء وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة

شعيرها، ويوضح سر اختلاف الدلالة بين صوت الحاء والقاف، ويجعل ذلك راجعا إلى رخاوة الحاء أي أنها ذات صوت احتكاكي يتناسب مع الشيء الرطب الذي يسهل أكله، وإلى صلابة القاف، فهو صوت انفجاري، ومن ثم يتناسب مع أكل اليابس الذي يصعب قطعه، فاختاروا الحاء لرخاوتها للرطب والقاف لصلابتها لليابس حذو المسموع للأصوات على محسوس الأحداث¹⁸.

وقد أدرك علماء اللغة مدى العلاقة الصوتية التي تربط بين حروف الكلمة الواحدة، ومثال على ذلك كلمة "تنضخ" التي تعبر عن فوران السائل بقوة وعنف، وكلمة "تنضخ" إذا ما قورنت بنظيرتها "تنضح" التي تدل على تسرب السائل ببطء، فإن المقاربة اللسانية تكشف لنا أن لصوت الحاء في كلمة "تنضخ" دلالة صوتية قوية، كما أن دلالة الحروف على اختلاف أصواتها لها مكانتها الحاضرة بقوة في تحديد مفهوم اللفظ، ومن ذلك كلمة جبل، فالجيم معناه الارتفاع والباء معناه البيت، واللام معناه الملاصقة، وعليه يصير المعنى المقصود من كلمة جبل: البيت المرتفع الملاصق إما للسحاب، وإما للأرض¹⁹.

وهذه الميزة جعلت اللفظة العربية لا تدل على المعنى فحسب وإنما تدل على حدث كامل له بداية، ووسط، ونهاية، وتمثلت مرحلة الحدث في معاني أصوات اللفظة في حد ذاتها كما يرد في مثال كلمة "بحث" فكل حرف فيها له دلالة على معنى من جهة ودلالة على مسموع صوت طبيعي من جهة أخرى، فالباء "تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض"²⁰، فكان أحدا ما وضع يده على الأرض محاولا إظهار ما يبحث عنه، فكان أول شيء يفعله الخفق بيده على الأرض فيصدر عنه صوت يشبه الباء، ثم زاد على ذلك بأن نبش في تراب الأرض وهو معنى حرف الحاء، فالحاء "الصحلها تشبه مخالب الأسد وبرائن الذئب ونحوهما إذا غارت في الأرض"²¹، فتصدر صوتا كصوت الحاء، وأما حرف التاء فيشبه صوته صوت النفث للتراب، هذا فيما يخص الفونيمات وتبدلاتها، أما فيما يخص المقاطع فإن للنبر والتنغيم أهمية كبرى في تحديد مدلولات السياقات الكلامية المختلفة، فأما النبر فهو الضغط على مقطع معين من الكلمة بقصد إيضاح هذا المقطع وإظهاره أو على كلمة معينة من الجملة قصد توكيدها، وتسمى بالنبرة التقابلية.

وفي اللغة العربية نوعان من النبر، وهما النبر الصرفي والنبر الدلالي أو نبر السياق وهو الذي نبحث فيه، ومفاده أن تغير موقع النبر من كلمة إلى أخرى في الجملة يظهر نقطة اهتمام المتكلم، ففي عبارة مثل: "هل يستطيع الإنسان أن يعيش فوق سطح القمر عاما كاملاً؟! فإذا كان النبر على عبارة "سطح القمر مثلاً"، دل ذلك على أن عبارة: "يعيش الإنسان فوق سطح القمر"، هو موضع الغرابة لدى المتكلم، وإذا كان النبر على "عاماً"، دل ذلك على أن المتكلم يعتقد أن الإنسان يمكنه العيش على سطح القمر ساعات أو أيام، لكن عاماً كاملاً شيء غريب ومستبعد".²²

وأما التنغيم فهو "إعطاء القول الأنغام المناسبة والفواصل المناسبة، وهذا المصطلح يدل على ارتفاع الصوت وانخفاضه في الكلام ويسمى أيضاً موسيقى الكلام"²³، فلو قرأ شخص قوله تعالى: (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ)²⁴، فالتأمل في هاتين الآيتين "لاشك أن تنغيم جملة "قالوا جزاؤه"، بنغمة الاستفهام، وجملة "من وجد في رحله فهو جزاؤه"، بنغمة التقرير سيقرب المعنى إلى الأذهان، ويكشف عن مضمون الآية، وكذلك لو قال إنسان عندما يرى شيئاً يعجبه "سبحان الله"، أو لو ردد هذه الجملة نفسها عند الغضب، فإن الذي يفرق بين مدلول هذه الجملة في الحالتين هو طريقة التنغيم"²⁵، فالتنغيم بذلك يسهم في إيضاح المعنى الذي يقصده المتكلم، فلو أن أحداً قال لصاحبه: "اشتريت الكتاب"، فإذا أراد الإخبار نطق بنغمة معينة، وإذا أراد الاستفهام نطق بنغمة أخرى مغايرة للنغمة الأولى.

¹ - يراجع مباحث في اللسانيات، أحمد حساني، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر، 1993م. ص 57.

² - De la lettre au livre, semiotique des manuscrits litteraires, louis hay, CNRS edition paris 2001, p90

³ - دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، خالد قاسم بني دومي، عالم الكتب الحديث إربد الأردن، ط 1، 2006، ص 14.

⁴ - المرجع نفسه، ص 17.

⁵ - كتاب الفهرست، ابن الندم، تحقيق رضا تحدد، طهران 1971م. ص 45.

- ⁶ - دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، خالد قاسم بني دومي، ص18.
- ⁷ - الخصائص، ابن جني، تح محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة بيروت، ط2، ج1 ص33.
- ⁸ - كتاب العين، الخليل، تح مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، منشورات مؤسسة الاعلى للمطبوعات بيروت ط1988م، ج1 ص64.
- ⁹ - الكتاب، سيبويه، تح عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية بيروت ط1999م، ج4 ص434، 435، 436.
- ¹⁰ - الخصائص، ابن جني، ج1 ص160.
- ¹¹ - علم الدلالة، فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب القاهرة، ط1/2005م، ص30.
- ¹² - يراجع المرجع نفسه، ص34.
- ¹³ - التحليل اللساني البنيوي للخطاب، عبد الجليل مرتاض، دار الغرب للنشر والتوزيع وهران، 2002. ص95.
- ¹⁴ - علم الدلالة، فريد عوض حيدر، ص37.
- ¹⁵ - مقدمة في علم اللغة، محمد يوسف حبيلص، ص182.
- ¹⁶ - المزهر، السيوطي، ج1 ص53.
- ¹⁷ - الخصائص، ابن جني، ج2 ص166.
- ¹⁸ - يراجع المصدر نفسه، ج1 ص33.
- ¹⁹ - يراجع جدل اللفظ والمعنى، مهدي أسعد عرار، دار وائل للنشر والتوزيع عمان الأردن ط1/2002. ص23.
- ²⁰ - الخصائص، ابن جني، ج2 ص161.
- ²¹ - المصدر نفسه، ج2 ص163.
- ²² - يراجع علم الدلالة، فريد عوض حيدر، ص34.
- ²³ - المرجع نفسه، ص37.
- ²⁴ - سورة يوسف الآية 74، 75.
- ²⁵ - دراسات في الدلالة والمعجم، رجب عبد الجواد إبراهيم، مكتبة الآداب القاهرة ط1/2002م، ص21.